البيئة الإجتماعية و دورها في تشكيل ثقافة الطفل

حيرش بغداد ليلى أمال

أستاذة مساعدة جامعة عبد الحميد بن باديس –مستغانم–

مقدمـة :

تعتبر الثقافة نتاج إنساني لأنها تعبر عن إتجاهاته في طقوسه وإحتفالاته وللثقافة علاقة مباشرة بالنواحي الإجتماعية وهذا ما يطلق عليه بالثقافة الإجتماعية التي تعكس إتجاهات الأفراد من خلال عملية التنشئة الإجتماعية ممثلا بعملية التطبيع الإجتماعي لذلك فهي تؤثر تأثيرا كبيرا على شخصية الفرد خصوصا وأن الشخصية تعرف بأنها العمل المتكامل من النواحي الجسدية والنفسية والإنفعالية التي تميز فرد عن آخر .

وتشمل التنشئة الإجتماعية الجهود و الوسائل الإجتماعية الفردية التي تؤدي إلى تحويل الكائن العضوي إلى كائن إجتماعي وبما أن الطفل يولد دون معرفة مسبقة أو ثقافة تساعده على التكيف مع مجتمعه بل يكتسبها خلال فترات نموه عن طريق التعلم و المحاكاة وبالتالي فالتنشئة الإجتماعية تساعده على ذلك و تساهـم في بناء شخصيته وذلك بمساعـدة مؤسسات المجتمع وأهمها المؤسسة الإعلامية وخصوصا التلفاز الذي يبث برامجا متنوعة بدورها تبث ثقافة قد تؤثر على الطفل وتساهم في بناء شخصيته وبالتالي تساهم في تكوين لديه ما يسمى بثقافة الطفل أي تنشئته ثقافيا .

مفهوم ثقافة الطفل :

لقد تعددت التعاريف التي تعرضت لدراسة ثقافة الطفل بإعتبار الطفولة مرحلة يقترن إسمها بالصغر و بالطفل في مرحلة مبكرة من عمره و التي يكون فيها بحاجة إلى والديه وقد تنوعت هذه التعاريف بحكم السؤال الذي يطرح نفسه وهو هل يمتلك الطفل ثقافة ؟

ترى سمية فهمي أن مفهوم ثقافة الطفل يظهر من خلال التأكيد على أن الثقافة هي الأساليب الحياتية لمجتمع معين وما تتضمنه من معان وقيم والتي تتحقق بعمليتين مترابطتين: [1]

1- التجريبية، الإستكشافية ، الإبداعية وتسفر عن منجزات مبتكرة و تذوق القيم المجسدة فيها .

2- ترويج لهذه القيم في العادات المعيشية و المعاملات اليومية ولا غنى للثقافة عن هاتين العمليتين إذ قدر لها أن تستمر فلا ثقافة بدون إبتكار منجزات تتضمن قيما أصيلة ولا حياة لقيم لا يمارسها أفراد المجتمع في أساليب حياتهم .

لذلك تعبر الثقافة عن أسلوب حياة تدخل في إطاره المنجزات و الإبتكارات و الممارسات .

ولربط ذلك بمرحلة الطفولة فإنه يمكن توضيح أن الطفل يمتلك طاقة تمكنه من الإبتكار و إبداع منجزات معبرة عن قيم ثقافية خلال مراحل نموه و بمساعدة أسرته و ذلك من خلال توفير له ما يساعده على ذلك ، كإعطائه حرية الإستطلاع في بيئته من أجل معرفة مختلف ألوان التراث الثقافي .

وإضافة إلى ذلك إستخدام مجمل المواد الموجودة في بيئته وذلك من أجل التعبير التلقائي الحر عن تجاربه الشخصية وبالتالي تنمية لديه أسلوب الحوار من أجل التعبير .

وترى سمية فهمي أن ثقافة الطفل " تشير إلى أنواع النشاط التي يبتكرها الأطفال مستخدمين مواد بيئتهم وأساليب تراثهم الثقافي للتعبير بحرية عن تجاربهم الشخصية في العالم المحيط بهم. وعن خلجات وجدانهم إزاء الأحداث التي تقع لهم وعن تخيلاتهم ورغباتهم ومشكلاتهم وما يرونه من حلول لهذه المشكلات، فالألعاب التي يقومون بها والأغاني التي يؤلفونها، والرقصات التي يبتكرونها والقصص التي يتخيلونها، والرسومات التي يتصورونها، والمسرحيات التي يبدعونها وغير ذلك من الأنشطة والمنجزات التي يزاولونها بأوسع قدر من الحرية والتلقائية . فهذه جميعا هي التي تشكل وعيهم ومن ثم ثقافتهم لأنها تتضمن نظرتهم إلى الحياة و أسلوبهم في مواجهة الأحداث كما تجسد المعاني التي لها قيمة بالنسبة لمرحلة نموهم ". [2]

ولا يتحقق كل ذلك إلا من خلال توجيه الرعاية والعناية للأطفال ومساعدتهم للتعبير عن مكنونات شخصياتهم .

أما عفاف عويس ترى أن ثقافة الطفل " هي تلك القيم السلوكية والذوقية والخلقية التي تنقلها الصفوة المبدعة من أفراد المجتمع في صورة فنية وأدبية للأطفال.....بحيث نصل بالطفل إلى تجاوز مرحلة إرضاء الحاجات البيولوجية إلى إبتكار أساليب جديدة و متطورة للتكيف و التفاعل"[3]

كما يرى عبد التواب يوسف " أن ثقافة الطفل تشير إلى تنمية ذكاء الطفل ووسيلة تدريبية على الإبداع و الإبتكار، وأسلوب[4] إكتشافه لذاته وقدراته من خلال التفكير العلمي و المنطقي وتوسيع آفاقه وخياله"

في حين هادي نعمان الهيتي يعرف ثقافة الطفل على أنها "إحدى الثقافات الفرعية في المجتمع ، ويعرف الثقافة الفرعية بأنها الثقافة التي تميز قطاعا رئيسيا في المجتمع وتشكل جزءا من ثقافته الكلية لكنها تختلف عنها في المظاهر و المستويات "[5]

ويتفق أغلب الباحثين في ثقافة الطفل على أن مفهوم الثقافة شامل يتسع للعادات والقيم والمعتقدات وأساليب السلوك والعلاقات والأدوار والتقنيات التي ينبغي تعلمها والتكيف معها بما يعطي الحياة نمطا محددا " [6] وبذلك فإن ثقافة الطفل تشكل منبع يتشرب منه الطفل قيم مجتمعه لذلك فهي جزء لا يتجزء من الثقافة العامة للمجتمع.يجد الطفل خلالها ما يساعده على الإندماج في المجتمع والإنسجام داخله وبالتالي داخل إطاره الثقافي العام وإن إختلفت هذه التعريفات لثقافة الطفل إلا أنها كلها تتفق وتجمع على أن الطفل يملك حقا ثقافة قد تعبر عن أسلوب الحياة السائد في مجتمع الأطفال .وحتى وإن إعتبرها الهيتي ثقافة فرعية فهي دائما مرتبطة بالمجتمع وببنائه الثقافي العام الذي يحددها ويرسمها "فهي ذلك الكل المركب من أفكار الأطفال وعاداتهم ولغتهم وأساليب أدائهم الأنشطة المختلفة وتعبيرهم عن أنفسهم ". [7]

فثقافة الطفل عموما تؤكد على أنها عملية ديناميكية شاملة تهتم بمختلف المجالات في الحياة يكتسب من خلالها الطفل عدد كبير من أشكال المعرفة من فنون وعلوم و آداب وكل ما يتناسب مع مراحل نموه ويتحكم في ذلك عدة عوامل أولها الثقافة العامة للمجتمع والبيئة المحيطة بهذا الطفل .

مقومات ثقافة الطفل وخصائصها

يتميز عالم الطفولة بخصائصه التي لا يمن لغيرهم أن يفهمها كالمفردات والعادات والمعايير وطرق خاصة في اللعب، كما أنهم يعبرون عن أنفسهم بطرقهم الخاصة وغير ذلك وكل هذا يجعلنا نقول أن لهم ميزات ينفردون بها عن غيرهم وأسلوب حياة خاص بهم يتواصلون عن طريقه بعضهم ببعض ويشلون من خلاله عالما خاصا يطلق عليه عالم الطفولة . وبما أن ثقافة الطفل هي جزء من الثقافة العامة للمجتمع لأنها مستوحاة من هذه الثقافة، فالطفل لا يمكنه أن يشكل ثقافة خاصة به خارجة عن إطار ثقافة مجتمعه بل يشكل ثقافة متداخلة مع ثقافة مجتمعه لذلك تظهر في ثقافة الطفل عموميات وخصوصيات و بدائل العموميات: وهي تشمل مجمل العناصر التي يشترك فيها جميع الأطفال في المجتمع مع إختلاف إنتماءاتهم الطبقية مثل لغة الأطفال، أنماط لعبهم.

الخصوصيات: وهي مالا يشترك فيه جميع الأطفال في نفس المجتمع وإنما تختص به ماعات معينة منهم لأن هذه العناصر تتوزع على أطفال طبقات معينة .

البديلات : وهي مجمل العناصر التي تنتشر بين الأطفال الذين يمكنهم الإتصال المباشر أو غير المباشر بثقافات أخرى غير ثقافاتهم مما يجعل عناصر دخيلة على ثقافتهم تمتزج معها .

خصائص ثقافة الطفل :

إن فئة الأطفال لا تشكل جمهورا متجانسا لذلك من الصعب تحديد خصائص ثقافات الأطفال لأنها تختلف من مجتمع لآخر ومنه كل طور في نمو الطفل يملك الأطفال خلاله ثقافة خاصة مشتركة في سمات معينة إذ تختلف قيم الأطفال وعادات لعبهم و سلوكاتهم في الطفولة المبكرة عن غيرهم من الأطفال في الطفولة المتأخرة ، ومنه تختلف ثقافة الطفل تبعا للبيئة الإجتماعية الثقافية التي تحيط به ويمكن إدراك خصائص ثقافة الطفل على أنها طريقة متنامية غير تابثة ديناميكية لها علاقة بنمو الطفل لأنها تتفق مع سمات الطفل في مرحلة النمو التي يمر بها ، وتجهزه ليتكيف مع المرحلة الموالية بثقافتها الخاصة .

أثر الثقافة في تشكيل وعي الطفل :

إن الطفل يكتسب من مجتمعه القيم والمعرفة والسلوكات الصحيحة عن طريق ما يصله من ثقافة مجتمعه التي تنتقل إليه بواسطة الأسرة وغيرها من المؤسسات، لذلك تساهم في تشكيل وعي الطفل " الطفل يتصل بالثقافة التي تهيمن على حياة الأسرة والمجتمع فيتأثر بهما ويؤثر فيهما ويكتسب منهما الوعي " [8]

ولكن هذا الوعي تشكله الثقافة من خلال تلاث عناصر:

– الثقافة وعلاقتها بشخصية الطفل:

تؤكد ميد على أن الطفل يولد صفحة بيضاء والثقافة التي يستقبلها هي التي ترسم وتخطط ملامح الشخصية من خلال عموميات وخصوصيات وبدائل الثقافة. ولكن ميد جعلت الثقافة تسبق الشخصية . وقد ادكاردنيه " أن اصح نظريات الثقافة و الشخصية لم يتعمقوا بما فيه الكفاية في عملية تكوين الشخصية و بذلك فشلوا في فهم الطبيعة الحقة للعلاقة بينهما "[9] فالشخصية من خلال هذا تعتبر أسلوبا عاما منظما لنماذج السلوك و العادات وغيرها من القيم، هذا الأسلوب الذي يتكون نتيجة مختلف خبرات الشخص وتتشكل من خلال التفاعل الإجتماعي، فالطفل يولد من دون شخصية ولكن يكتسبها بفضل التفاعل الإجتماعي مع بيئته ومحيطه، فالشخصية هي وليدة الثقافة وتتعدد الشخصيات مع تنوع الثقافات وكل ثقافة تكون الشخصية المناسبة معها. فالشخصية ما هي إلا نتاج ثقافي .

– الثقافة وسلوك الطفل :

يكتسب الطفل إضافة إلى شخصية أنماطا مختلفة من السلوك، فالسلوك هو نتاج التفاعل المستمر بين الشخصية والثقافة لذلك يعتبر سلوك الأطفال وليد الثقافة حيث يتعلم الطفل أنماطا محددة من السلوك كما يتعلم ما يجعله يتكيف مع المجتمع ويندمج فيه .

– الثقافة ونمو الطفل :

تلعب الثقافة دورا مهما في نمو الطفل لأن المحيط يؤثر وبدرجة كبيرة على النمو الإنفعالي و الإجتماعي، فالثقافة تلعب دورا في تشكيل الإدراكات. كما تؤثر الثقافة في النمو العاطفي والإنفعالي للطفل وذلك من خلال تنمية إستجاباته للمؤثرات وإكتسابه الطرق التعبيرية عن إنفعالاته أما حركيا من خلال تنظيم حركاته و مهاراته .

العوامل المؤثرة في تشكيل ثقافة الطفل :

يعتبر المحيط الإجتماعي الثقافي مهما في تكوين شخصية الإنسان وتحديد سلوكه، فداخل المجتمع يتحول الطفل إلى كائن إجتماعي وداخله يكتسب ثقافته ، فعندما يولد يجد ثقافة زاخرة بالعادات والتقاليد والأفكار ،القيم وتراثا كونه المجتمع على مر العصور، لذلك يؤثر الطفل في البيئة وتؤثر فيه ضمن علاقة جدلية لذلك هناك عدة مصادر تساهم في تشكيل ثقافة الطفل أو بالأحرى مؤسسات أي كل ما يمكن أن يتفاعل معه الطفل في ظل البيئة المحيطة . [10]

–الأسرة :

تعتبر الأسرة المؤسسة الأولى التي يتلقى فيها الطفل تنشئته والتي يمكنها أن تنقل له ثقافة مجتمعه "إن أول بيئة إجتماعية ثقافية يقابلها الطفل، ويتفاعل معها وتغرس فيه البذور الإجتماعية والثقافية الأولى بالمعنى العام للكلمة هي الأسرة التي يتعرض فيها الطفل لمختلف التأثيرات الإجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع"[11] لذلك فإن الجو الأسري يلعب دورا كبيرا في تشكيل ثقافة الطفل . من خلال ما يكتسبه من تنشئة التي تتأثر بالظروف المعيشية للأسرة وبمستواهم الثقافي وغيره من العوامل، فالوالدين المتعلمين بإمكانهم توفير لأبنائهم خبرات تعليمية وثقافية وكذا بالنسبة للمستوى المادي مما يجعلهم يتمتعون بأشياء أخرى تساعدهم على تشكيل ثقافتهم و تكوينها.

– المدرسة :

يعتبر التعليم إحدى العناصر الأساسية في تشكيل الثقافة وتنميتها لذلك تعتبر المدرسة المؤسسة الثانية التي تساهم في تشكيل ثقافة الطفل ووعيه ووظيفتها مكملة لوظيفة الأسرة وقد رأى دوركايم أن المدرسة هي المكان الوحيد الذي يصقل ثقافة الطفل و ينظمها – المؤسسة الدينية :

وهي تساهم بقدر كبير في تشكيل ثقافة الطفل لأنها تعلمه المعايير السلوكية الواجب إستقاتها وتغرس القيم الروحية لذلك فهي تزوده بقدر من الثقافة وتساهم في تشكيل وعيه بها .

– وسائل الإعلام :

أضحت وسائل الإعلام تلعب دورا كبيرا في تشكيل الثقافة خاصة عند الطفل خصوصا التلفزيون لأنها هي التي يتصل بها الطفل إتصالا دائما و يقضي معظم وقته أمامها لذلك أصبحت قوة جاذبة يتعرض لها الطفل تلقائيا، فقد أكد ماكلوهان على أن وسائل الإعلام تغير من طبيعة الثقافة بكل مقوماتها لذلك تشكل الثقافة مضمون معظم وسائل الإعلام ، كما يؤكد ويلبر شرام على أن الفرد يتعرض في المجتمع الذي تتوافر فيه هذه الوسائل لحوالي 3ساعات في المتوسط يوميا يحصل خلالها على مختلف ألوان الثقافة" [12]

وأهم هذه الوسائل التلفزيون لأنه وسيلة سمعية بصرية والصورة داخله تجلب إليه العديد من فئات المجتمع وعلى رأسهم الأطفال " ينقل التلفزيون الكلمة والصورة مسموعة ومرئية فضلا على أنه يخاطب الأميين، والمتعلمين على إختلاف مستوياتهم العمرية أو التعليمية أو الإجتماعية أو الإيولوجية"[13] فثقافة الطفل أصبحت عرضة للتأثر بما يقدمه التلفزيون لأنه يستمد منه المقومات الثقافية والترفيهية، خصوصا وأن الطفل في مراحل طفولته لا يميز بين ما هو واقعي وما هو خيالي و يعتبر ما يعرض في التلفزيون واقعا حقيقيا لذلك نجده يقلد كل مايراه و يحاكيه مما يدلنا على تأثر وعيه بالتلفزيون ومن ثم تأثر ثقافته .

قائمة المراجع :

- سمية فهمي ، علم النفس و ثقافة الطفل ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1979
- عفاف أحمد عويس ، ثقافة الطفل بين الواقع و الطموحات ، مكتبة الزهرة ، القاهرة ،1992
- إيناس محمد غزال ، الإعلانات التلفزيونية و ثقافة الطفل ، دار الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، 2001
- هادي نعمان الهيتي ، ثقافة الأطفال ، عالم المعرفة ، العدد 132، الكويت ، 1988
- عبد الهادي الجوهري ،أسس علم الإجتماع ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ،1991
- يعقوب الشاروني ، الطفل و التنمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مجلة القاهرة ، العدد 111 ، 1990
- هدى محمد قناوي ، الطفل تنشئته وحاجاته ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1988
- عاطف عدلي العبد ، الإعلام المرئي الموجه للطفل العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1989
- محمد السيد حلاوة ، تثقيف الطفل بين المكتبة و المتحف ، كلية رياض الأطفال ، مصر 2002 ،ص16
- باسم علي حوامدة و آخرون ، وسائل الإعلام و الطفولة ، دار جرير ، عمان ، 2006

الهوامش:

1. سمية فهمي ، علم النفس و ثقافة الطفل ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1979 ، ص63
2. سمية فهمي ، مرجع سبق ذكره ، ص31-32
3. عفاف أحمد عويس ، ثقافة الطفل بين الواقع و الطموحات ، مكتبة الزهرة ، القاهرة ،1992 ، ص20
4. إيناس محمد غزال ، الإعلانات التلفزيونية و ثقافة الطفل ، دار الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، 2001،ص75
5. هادي نعمان الهيتي ، ثقافة الأطفال ، عالم المعرفة ، العدد 132، الكويت ، 1988 ،ص29-
6. 3-محمد السيد حلاوة ، تثقيف الطفل بين المكتبة و المتحف ، كلية رياض الأطفال ، مصر ، 2002، ص16
7. باسم علي حوامدة و آخرون ، وسائل الإعلام و الطفولة ،دار جرير، عمان ،ط1 ، 2006 ،ص46
8. عبد الهادي الجوهري ،أسس علم الإجتماع ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ،1991 ، ص103-106
9. يعقوب الشاروني ، الطفل و التنمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مجلة القاهرة ، العدد 111 ، 1990 ،ص7
10. هدى محمد قناوي ، الطفل تنشئته وحاجاته ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، 1988 ، ص30
11. إيناس محمد غزال ، مرجع سبق ذره ، ص105
12. عاطف عدلي العبد ، الإعلام المرئي الموجه للطفل العربي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1989 ، ص3